

دلالات مصطلحات الإباضية المدرسة الإباضية في تراثها المدون

Sulaiman Hamed Altouqi سليمان بن حمد الطوقي

وزارة الأوقاف والشؤون الدينية- مكتب الإفتاء

(سلطنة عُمان)

The Ministry of Endowments and Religious

Affairs- Iftaa Office, Sultanate of Oman

Sulaiman.altawqi@gmail.com

المخلص

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، لقد تميزت المدرسة الإباضية بشقيها المشرقي والمغربي بمصطلحات شرعية لها دلالاتها المتوازنة، تُعرف بها، ندر أن يستعملها غيرهم من أصحاب المدارس الإسلامية، وغالباً ما لا تعطي نفس تلك المصطلحات عند المدارس الإسلامية الأخرى نفس التي تعطيها من الدلالات عند الإباضية، وبسبب تلك المصطلحات لاقت المدرسة الإباضية إشادة وثناء من جانب؛ لما تميزت به عن غيرها، خصوصاً أن منبع تلك المصطلحات القرآن الكريم والسنة المطهرة، وفي الجانب الآخر لاقت نقداً وشجباً، وهذا الطرف الأخير إما أنه لم يفهم دلالة تلك المصطلحات فأطلق حكماً في أمر لم يفهمه، أو أنه تعمد إطلاق أحكامه مع توفر الآلة والمراجع لتبيان المعاني واستيعابها وفهمها من مصادرها، ولكل فريق وجهته وهدفه.

ويأتي هذا البحث لبيان أهم تلك المصطلحات ودلالاتها عند الإباضية من مصادرها المدونة، وسيسير هذا البحث وفق منهجين اثنين: **المنهج الاستقرائي** في تتبع هذه المصطلحات من أهم المصادر والموسوعات الإباضية المدونة، **والمنهج التحليلي** لبيان معاني تلك المصطلحات وما اشتملت عليه من ميزات حفظت للمدارس الأخرى مكانتها وتقديرها، ويحتوي هذا البحث على ثلاثة مباحث: **أولها** عن التدوين في هذه المصطلحات، وأما المبحث الثاني فسيتناول أهم تلك المصطلحات وبيان معانيها ودلالاتها عند الإباضية، وفي المبحث الثالث قراءة تحليلية فيما تشير إليه تلك الدلالات من معاني التقدير للمدارس الإسلامية الأخرى، مذيلة بالرد على الافتراءات التي وسم بها الإباضية من خلال تلك الدلالات، ثم خاتمة في أهم ما اشتمل عليه البحث من النتائج والتوصيات.

الكلمات المفتاحية: الإباضية، مصطلحات الإباضية، المدارس الإسلامية، التراث المدون.

من خلال هذه الورقة التي تسعى إلى إزالة بعض العوائل غير الصحيحة التي ألصقت بالإباضية وجعلت سمة لها بينما هي براء من ذلك، فكانت للمصطلحات التي استعملها الإباضية دور للولوج إليهم للقدح في أصولهم، وتشويه فكرهم، وإعطاء الآخرين صورة مغلوطة عنهم، والناس إزاء ذلك على قسمين اثنين في الغالب، منهم من حمل تلك المصطلحات وفق تفسير من سبقه دون تمحيص ورجوع إلى مصادر الإباضية الأصيلة لمعرفة الحق، ومنهم من تعمد تأويل تلك المصطلحات -رغم ظهور معانيها له- بقصد التشويه حسداً وبغضاً، وهذا القسم الثاني قليل بحمد الله، ومن خلال هذه الورقة فإن البحث سيتعرض إلى معالجة وإيضاح هذه الإشكالات من خلال ثلاثة مباحث أولها عن تاريخ استعمال هذه المصطلحات عند الإباضية، وفي المبحث الثاني بيان لدلالات تلك المصطلحات عند الإباضية، أما في المبحث الثالث فسيتناول قراءة تحليلية فيما تشير إليه تلك الدلالات من معاني التقدير للمدارس الإسلامية الأخرى، ثم تأتي الخاتمة ملخصة لأهم ما اشتمل عليه البحث مع النتائج والتوصيات.

المبحث الأول: تدوين المصطلحات عند الإباضية

المصطلحات عند الإباضية

المذهب الإباضي حاله كحال غيره من المذاهب الإسلامية، له ما يتفرد به من أصول وفروع وما يميزه عن غيره، وفي جانب المصطلح فقد استعمل الإباضية مصطلحات لا تكاد توجد عند غيرهم من المدارس الإسلامية، ومن ذلك مصطلح (الجملة) ويعنى به الشهادتين، فمن أتى بالجملة مقراً بها وبمعانيها كان له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وأصحاب الجملة أو أهل الجملة هم المسلمون بمختلف مذاهبهم الإسلامية دون استثناء، وكذلك مصطلح (كافر كفر نعمة) أو (كفر دون كفر)، ولم يجد الإباضية غضاضة في إطلاق هذه المصطلحات واستعمالها لما لها من إشارات قرآنية أو من السنة النبوية المطهرة 111.

تدوين المصطلحات

منذ أن بدأ التدوين عند الإباضية كانت تلك المصطلحات حاضرة عندهم، وكان مستندهم في ذلك كتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- ورووا ذلك وهم عارفون بالمراد، ففي مراسيل الإمام جابر بن زيد مما روي في مسند الإمام الربيع بن حبيب ما أرسله جابر بن زيد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قوله: "من خرج من بيته فرأى ما يكرهه فرجع تطيئراً من أجله رجع كافراً" 112، ولا شك أن ذلك ليس كفراً مليئاً مخرجاً من ملة

¹¹¹ البسيوي، أبو الحسن علي بن محمد بن علي، (1984) **جامع أبي الحسن البسيوي**، مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة، ج/1، ص258-259.

¹¹² الربيع بن حبيب الفراهيدي، (1994) **الجامع الصحيح مسند الإمام الربيع بن حبيب**، مسقط: مكتبة مسقط، ص192-193.

الإسلام، وإنما مراده الاعتقاد الخاطئ وهو إثم، وسار على هذا النهج في التدوين علماء الإباضية في القرون التي تلت النصف الثاني من القرن الهجري الثاني.

المبحث الثاني: المصطلحات وبيان معانيها ودلالاتها عند الإباضي

كفر النعمة، ويطلق على مثل هذا المعنى مصطلح (كفر دون كفر)، وهذا المصطلح له تعريفات عدة تشمل العصاة المرتكبين لكبائر الذنوب، إما لمقارفتهم لها مع يقينهم بحرمتها، أو لإصرارهم على الصغائر منها، أو تركهم لواجبات امر بها الشارع الحكيم، وكذلك يطلق على المخطئ في التأويل "الكفر كفران، كفر جحود، وكفر نعمة، فالجحود كفر بالتنزيل، وكفر النعمة الخطأ في التأويل" له شواهد قرآنية ومن مثل تلك الشواهد قول الله تعالى "وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ" الحج:97، ولا شك أن من وجّه الآية بأنها خطاب لمن ترك الحج وهو قادر عليه فالكفر في الآية الكريمة لا يقصد به الكفر المخرج من الملة، وإنما هو كفر النعمة، وأطلق عليه كفر تغليظاً ، ، ، ، وعرف البهلائي كفر النعمة بقوله "سترها بترك أداء شكرها"، واستدل لذلك بقول الله تعالى على لسان نبي الله سليمان -عليه السلام- "لِيَبْلُغِي أَشْكُرَ أَمْ أَكْفُرُ" النمل: 40، ولا ريب أن سليمان النبي لا يقصد كفر الجحود حاشاه

أهل الجملة، ويطلق على مثل هذا المعنى مصطلح (أهل القبلة وأهل التوحيد)، ويُعنى بالجملة هنا الشهادتان، وأهل الجملة هم المسلمون الموحدون الذين أتوا بالشهادتين وصدقوا بما فيهما علماً وعملاً ، وهؤلاء عند الإباضية مسلمون لهم ما على المسلمين وعليهم ما عليهم ، ، ولا يزول عنهم هذا المصطلح إلا إن أتوا صراحة بقول أو فعل مخرج من الملة بنص القرآن الكريم أو سنة نبي المرسلين أو بإجماع العلماء العارفين، وقد قال السالمي في بيان حقوق من يأتي بالجملة: فإن أتيت بما نطقاً حفظت بما * للنفس والمال والسبي بما حظلاً

المخالفون، ويطلق على مثل هذا المعنى مصطلح (القوم أو قومنا)، ويعنى بهم الذين لا ينتسبون إلى المدرسة الفقهية الإباضية من كافة المذاهب الإسلامية، ويغلب على هذا الإطلاق الذين ينتسبون إلى المذاهب الفقهية الأربعة (المالكية والشافعية والأحناف والحنابلة)، فإن أريد ذكر غيرهم حُصوا بالذكر كالشيعة والمعتزلة والظاهرية، وهذا هو الغالب في مصنفاتهم.

الأصحاب، ويُطلقون عليهم كذلك مصطلح (أصحابنا)، وهم الذين ينتسبون إلى الإباضية؛ تمييزاً لهم، وللتفريق خصوصاً في المسائل التي يتفق عليها الإباضية دون اختلاف بينهم كالرفع والضم في الصلاة، وقول آمين بعد الفاتحة، أو في فروع العقيدة التي يقولون فيها باتفاق قولاً واحداً من نحو مسألة رؤية الباري، والخلود، وخلق القرآن

المبحث الثالث قراءة تحليلية فيما تشير إليه تلك الدلالات من معاني التقدير للمدارس الإسلامية الأخرى

مصطلح (كفر النعمة)، وهذا المصطلح يطلقه الإباضية على من أتى بكبيرة أو أصر على صغيرة فحسب، من أي مذهب كان هذا، حتى لو من أهل مذهبهم، وجاء البيان فيه أن هذا اللفظ أخذوه من كتاب الله تعالى وسنة نبيه -صلى الله عليه وسلم- وليس في اللفظ ما يسيء إلى أهل المدارس الإسلامية الأخرى التي لا تتفق معهم؛ كونهم لم يخصصوه لأهل مذهب، بل على الأفراد عموماً من كافة المذاهب فيمن يستحق هذه الصفة

مصطلح (أهل الجملة)، الذي تفرد به الإباضية دون سواهم يبعث على الوحدة والألفة، فكل ما نطق بالجملة فهو أخ لنا في الإسلام، وفيه يقول السلمي: ومن أتى بالجملة قلنا * إخواننا وبالحقوق قمنا، ولا يتعاملون معه إلا كعاملتهم للإباضي، فيصلون خلف أهل الجملة، ويؤدون الزكاة للمحتاج منهم، ويمدون أيديهم لعونهم ونصرتهم، ويزوجونهم ويتزوجون منهم، هذا هو الأصل عندهم، فإن أتوا بما يتنافى مع معنى الجملة صراحة دون مواربة بينوا لهم الصواب واعتبروا ذلك حقاً يؤدونهم لهم ،

مصطلح (قومنا) أو (مخالفونا) يحمل من التقدير والاحترام ما لا يخفى على من له أدنى اطلاع في كتب الإباضية؛ ذلك لأن الإباضية أولاً لا يستغنون عن كتب المدارس الإسلامية الأخرى، فيرجعون إليها ويستدلون من نصوصها ويستفيدون من مناهجها، بل ويتفوقون معها فيما يرون أنه موافق للدليل، فالتعصب للدليل لا للمذهب، بل يأخذ بعض العلماء منهم بقول عند المذاهب الأخرى رغم أنه غير مشهور في مذهبهم، وقد كتب أبو سعيد الكدومي تعليقات وزيادات على كتاب الإشراف لابن المنذر النيسابوري ، وهو من غير أتباع مذهبهم، وهذا الانفتاح انعكس على المصطلحات التي استعملها الإباضية لمن يخالفونهم في المذهب فسموهم مخالفونا، أو قومنا، وفي المصطلحين دلالة ظاهرة على أن التقدير للآخرين حاضر، بل فيه نوع من الشعور بالصلة القوية حينما يطلقون عليهم (قومنا)، وكذلك أن يختلف معك شخص وتعتبره مخالفاً لمنهجك أو تفكيرك، فالمخالفة لا تعني بالضرورة أنه على خطأ وأنت على صواب، وإنما يراد بها أنه اختلف معك في منهجك الذي تعتقد أنه صائب، ويعتقد أنه على منهجه صائب كذلك، ولا أدل على ذلك كله من تعايشهم مع مخالفينهم، ليس في خارج بلادهم فحسب وإنما في داخل بلادهم، وفي كتب التاريخ الإباضي وغير الإباضي سائحة تبأ عن هذا التعايش المغمور بالمودة والإخاء رغم السلطة التي كان يمتلكها الإباضية،

مصطلح (الأصحاب)، وهو خاص بهم، ولو نظر المتأمل إلى هذا المصطلح وجده مصطلحاً عادياً يطلقه الإباضية ليميزوا بهم من يتشارك معهم في المذهب وإن لم يكن على صلاح، فلا يوجد في المصطلح ما يشير إلى همز الآخر أو القدر فيه، فهو للتمييز فحسب

الخاتمة

خلصت هذه الورقة البحثية إلى أن للإباضية مصطلحات تعارفوا عليه وضمنته كتبهم، هذه المصطلحات لم يكن الغرض منها التقليل من الآخرين ممن ينتسبون إلى مذاهب أخرى، وإنما الظروف التي كانوا يعايشونها فاستعملوها ليميزوا أنفسهم، أو أن بعض تلك المصطلحات إنما جاءت استقاء من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وإن تقديرهم للآخر واحترامهم له، بل وحتى دفاعهم عنه إن كان مظلوماً أو استنصرهم، فجميع معاني الأخوة الإيمانية وأحكام المسلمين يجرونها على من يخالفهم في المذهب دون تمييز أو تحيز، والتاريخ شاهد على ذلك من كتبهم أو كتب مخالفهم

المصادر

- البيسيوي، أبو الحسن علي بن محمد بن علي، (1984) جامع أبي الحسن البيسيوي، مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة، ج/1، ص258-259
- الربيع بن حبيب الفراهيدي، (1994) الجامع الصحيح مسند الإمام الربيع بن حبيب، مسقط: مكتبة مسقط، ص192-193
- السالمي، عبدالله بن حميد بن سلوم، (1995) مشارق أنوار العقول، بيروت: دار الحكمة، ص504
- العوتي، أبو المنذر سلمة بن مسلم، (2015) كتاب الضياء، مسقط: وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، ج/3، ص186
- محمد بن يوسف أطفيش، تيسير التفسير للقرآن الكريم، مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة، ج/2، ص130-131
- محمد بن يوسف أطفيش، (1994) هيميان الزاد إلى دار المعاد، سلطنة عمان، المطابع العالمية، ج/4، ص183
- القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد، (2002) الجامع لأحكام القرآن، القاهرة: دار الحديث، ج/2، ص512-513
- محمد رشيد رضا، (2002) تفسير المنار، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ج/4، ص12

- الخليلي، أحمد بن حمد، (2020) الفتاوى، مسقط: الكلمة الطيبة، ج/2، ص245.
- البهلايني، أبو مسلم ناصر بن سالم بن عديم، (2001) نثار الجواهر في علم الشرع الأزهر، مسقط: مكتب مسقط، ج/1، ص122.
- الخليلي، أحمد بن حمد، (2016) برهان الحق، مسقط: الكلمة الطيبة، ج/1، ص107-108.
- الكدمي، أبو سعيد محمد بن سعيد بن محمد، (1985) الجامع المفيد من أحكام أبي سعيد، مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة، ج/1، ص13.
- الشميني، عبدالعزيز بن إبراهيم، (1986) معالم الدين، مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة، ج/2، ص94.
- الخليلي، أحمد بن حمد، (2013) شرح غاية المراد في نظم الاعتقاد، مسقط: وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، ص7.
- الخليلي، أحمد بن حمد، شرح غاية المراد في نظم الاعتقاد، ص7.
- الطبري، محمد بن جرير بن يزيد، (1987) تاريخ الرسل والملوك، بيروت، دار التراث، ج/7، ص395.
- عبدالكريم محروس ميزان، (2019) إباضية حضرموت وعلاقتهم بعمان ق2-7هـ - 8-13م، اليمن، دار حضرموت، ص81.
- الكدمي، أبو سعيد محمد بن سعيد، (2011) زيادات أبي سعيد الكدمي على كتاب الإشراف لابن المنذر النيسابوري، مسقط: وزارة الأوقاف والشؤون الدينية.
- مهدي طالب هاشم، (1981) الحركة الإباضية في المشرق العربي نشأتها وتطورها حتى نهاية القرن الثالث الهجري، دار الاتحاد العربي للطباعة، ص116.
- أحمد بن حمد الخليلي، (2013) الاستبداد مظاهره ومواجهته، سلطنة عمان، ص142.